باب الاجتهاد والتقليد

﴿ المسألة المراكشية وحرب الدار البيضاء ﴾

كتبنا في السنة الأولى للمنار نصيحة فيه لسلطان مراكش أنذرناه فيها بأن طوفان أوربا لا بد أن يفيض على بلاده فيغمرها ان لم يبادر هو الى إصلاح شأنها بما تقتضيه حال العصر من التربية والتعليم لا سيما تعليم الفنون العسكرية والمالية. ثم كنا نعيد النصائح والتذكرة بعد أخرى وآخر عهدنا بها ما كتبناه في أيام انعقاد مؤتمر الجزيرة من العام الماضي (١٩٠٦) وما تقفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) بالاسباب والمسببات وسنن الله تعالى في الامم وانما يعتمدون في دفع الضر وحفظ المصالح على الخوارق وكرامات الاولياء مع ما درجوا عليه من التقاليد والعادات لا يقبلون وراء ذلك إصلاحا، ولا يعتبرون بدونه فلاحا، وقد سبق لنا بيان التجائهم الى قبر مولاي إدريس وجوار أهل العلم الذين عنده بكلمة « باللطيف » ليدفعوا بذلك ما طالبته فرنسا من السلطان يومئذ فليرجع الى ذلك في المجلد الثامن من المنار

مرت الأيام والسنون وأهل هذه البلاد يفتنون في كل عام مرة أو مرتين أو مرات ثم لا يتوبون ولا من قبورهم ولا هم يذكرون ما حل بأمثالهم من الأمم والشعوب الجاهلية بمثل هذا العصر ورقي أهله وما يجب من اعداد القوة لمدافعتها اذا عدت بحسب الاستطاعة وعلى قدر ما هي عليه من الاستعداد وكل ذلك مما يرشد اليه الاسلام ويفرضه بنص القرآن ولكن اين أولئك الجاهلون من الاسلام والقرآن وهم يعتقدون أن قراءة تفسيره بحضرة السلطان وحياته عندهم أولى من احياء القرآن، ثم ماذا تفيدهم قراءته اذا كانوا يعتقدون ان الاهتداء به من الاجتهاد الممنوع بحكم شيوخ التقليد الجامدين، وان الدين لا يؤخذ الا من كتب الفقهاء الميتين، كما فهمها أصحاب الجاه من الشيوخ الحاضرين، وهم يرون ان العلوم

والفنون والصنائع التي بها تصنع آلات القوة كالبنادق (ويسمونها المكاحل) والمدافع والبوارج الحربية كلها محرمة لا يجوز للمسلمين الاشتغال بها كما يرى ويعتقد ذلك أشباههم من أصحاب العمائم في أكثر بلاد المسلمين، وبذلك أضاعوا الدنيا والدين، وكانوا سبب هلاك المسلمين»

مرت الأيام والسنون فدخلت (مسألة مراكش) أي مسألة محاولة أوربا استعمارها والاستيلاء عليها في طور جديد فقد اعتدى بعض المغاربة على العملة الأوربيين في مرفأ «الدار البيضاء» وهي من حواضر مملكة مراكش ففتح بذلك لفرنسا باب استعمال القوة في هذا القطر فدخلت منه وذلك ما كانت تبغي

أصبحت فرنسا مع قبائل المغرب في حرب تمددت وقائعها فالقبائل تهاجم الدار البيضاء فتلاقيها العساكر الفرنسية بمدافعها ومن وراءها البوارج تساعدها بمدافعها فتمزق شمل القبائل وتنسفهم في الهواء نسفاً ولكن الفرنسيين قد دهشوا من شجاعة المغاربة واستبسالهم فسلطوا عليهم عسكرهم من مسلمي الجزائر لعلمهم بأنه لا يفل الحديد إلا الحديد وقد ترك المغاربة الهجوم الى حيث تنالهم مدافع البحر

وهما عظمت شجاعة المغاربة فإنها والجهل قائدها لا تكفي لحفظ استقلال البلاد ولا تدفع عنها ما تريد فرنسا منها فإن الجهل لا يغلب العلم والاختلال لا يعلو النظام فإذا كان أهل المغرب الأقصى أسوداً فإن العقلاء من البشر قد عهد منهم التصرف في الأسود وحبسها في بلادها هي موائلها وما عهد أن تعيش فيها وجعلها مع ذلك في مواضع النزهة يأنس بروئيتها حتى النساء والولدان . نعم ينتظر أن تتعب فرنسا في تذليلهم كما تعبت في الجزائر ولكن العاقبة للمتقين كما قال الله تعالى والقوى تفسر في كل مقام بحسبه فهي تفسر في باب الحرب والصدام باتقاء أسباب الانكسار والخذلان ولا شك أن فرنسا هي المتقية ما يجب اتقاؤه في هذا المقام بالتدبير التام وإعداد ما تستطيع من قوة كما أمر الله تعالى

ومن التدبير الذي يفعله العقلاء ولا يدري به الجهلاء وهو من قبيل السهل يضرب جلمودا بجلمود ايقاع الشقاق بين زعماء في المغرب وما وقف ذلك عند حد المطالبين على السلطان والمختارين له بل قامت طائفة عظيمة من الأمة فبايعت

بالملك مولاي حفيظاً (أو عبد الحفيظ) أخا السلطان عبد العزيز بفتوى من العلماء فصار في البلاد سلطانان سيحارب كل منهما الآخر فيكفون فرنسا شر قوة البلاد

يظن كثير من الناس أن السلطان عبد العزيز سيلجأ الى فرنسا لتحفظ له سلطانه وتكفيه شر أخيه كما لجأ توفيق باشا الى انكلترا في إبان الثورة العرابية وبذلك تحتل فرنسا بلاد مراكش احتلالاً رسمياً يسمى موقتاً وتعمل عملها فيها باسم السلطان كما تحكم تونس باسم الباي وهذه هي الطريقة التي استقر عليها رأي ساسة أوربا في استعمار بلاد المسلمين لأن حكمهم باسم أمرائهم وملوكهم أقرب الى السلام وأبعد عن النزاع والخصام

انه ليحزننا أن نرى مملكة اسلامية في الشقاء التي أحاط بمملكة مراكش ولا يسرنا أن تبقى على ماهي عليه أو على ما كانت عليه اذا كان ما انتابها الآن مبدأ للانتقال من حال الى حال

وانه ليحزننا أن يكون انتقالها بقوة الاجانب لا بتدبير رجالها وحكمهم ولكننا لا نرى منفذاً خيط من خيوط أشعة الرجاء في أولئك الرجال الجهلاء فباطالما نصحنا لهم وأنذرناهم البطشة الكبرى (٥٤ : ٣٦ فماروا بالنذر) بل كان مثلنا ومثل سائر الناصحين معهم (٢ : ١٧١ كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون)

ان أهل العقل والعلم من طلاب الاصلاح للمسلمين تمنى قلوبهم لو يدوم السلطة مراكش استقلالها وتحول دونها أوربا عفا عما مضى يكون اصلاح حالها من نفسها ولو بعد حين ولكن عقولهم تحكم بأن هذا شيء لا مطمع فيه وتدرك ان من السنة العامة في الاكوان ومن سنن المبدع في اجماع الانسان أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق (راجع سورة الانبياء ٢١ : ١٨) وأن الارض يرثها عباد الله الصالحون أي لعمارتها (راجع آية ١٠٥ من السورة المذكورة) ولا شك أن العلم بالنظام وبطرق العمران وتأمين السكان من الملق وهو مما يتوهم الاوربيون وان ما عليه المغاربة من ضد ذلك هو من الباطل . وان الاوربيين يعدون بالنسبة الى المغاربة من الصالحين لاعمار الارض التي امنن الله علينا بها كما قال تعالى

(١١ : ٦١ هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها) فكان الكتاب العزيز مؤيدا لحكم العقل في وجوب زوال استقلال المغاربة وكل دولة لا تحسن الاستعمار ولا تقيم النظام الا أن تتوب وتقيم الميزان بعد الاستعداد له بما تقتضيه حال الزمان. ولا يظهر صدق الآية الكريمة في أرث الارض الا بهذا التفسير ولنا فيه سلف صالح فهو منقول لا مخترع

إن حكم الفرقان والقرآن بأن دول العلم والنظام والاستعمار هي التي تسود على دول الجهل والخلل والافساد في الارض هو الذي يخفف من ألم حسرة العقلاء على زوال استقلال دول المسلمين ولا أقول دول الاسلام فان من يقفي القرآن يزوال دولته لا تكون دولته اسلامية ولكن قد تكون مسلمية وبهذا نبرىء الاسلام بحق من مناقضة أصول العمران العلمي ونجعل ذلك على أعناق المسلمين

﴿ غرور متعلمي اللغات الاوربية ﴾

ان أصحاب العقول الصغيرة من متعلمي اللغات الاوربية يتخيلون ان كل من تلقف لغة منها صار من العلماء الاعلام والحكماء المرشدين للأنام ولكن هؤلاء المتعلمين يعدون بالألوف ولا تكاد تجد واحدا منهم في الألف يفيد أمته بكتاب يفضل به غير العارفين بهذه اللغات وانا نرى أكثر ما يكتب كاتبوهم في الجرائد أو غيرها في منتهى السخف وضعف الفكر والسبب في هذا أن اللغة الاوربية وسيلة العلم ليست هي عين العلم ولا عين العقل الذي لا علم بدونه ولا فهم

اذا وجد في متعلمي هذه اللغات أفراد كمصطفى باشا زغلول وقاسم بك أمين لهم آثار في الترجمة والتصنيف تدل على أنهم استفادوا من اللغة الأوربية علما وبصيرة فانه يوجد فيهم ألوف لم يستفيدوا الا الغرور والتبجح والدعوى ومنهم من أضاع ثروته الموروثة وأهان نفسه وذوي قرابته بسوء تصرفه وما كانت اللغة الاجنبية التي يعرفها الا عونا له على اضاعة ماله وشرفه ثم هو يفاخر باللغة وعلومها ويحتقر علوم العربية من دينية وغيرها ويحط من قدر أهلها

للاستاذ الامام آثار جليلة كتبها قبل ان يتعلم لغة الفرنسية كمقالات الوقائع المصرية ومقالات العروة الوثقى وقد كان ما يكتبه بعد تعلم هذه اللغة أدل على

كثرة الاطلاع والسعة في العلم ولكن هل يوجد في هؤلاء الألوف من المتعلمين من يستطيع أن يكتب مثل تلك المقالات التي كان العالم يهتز لها حتى ان انكلترا ذات الحرية الواسعة منعت العروة الوثقى من مصر والهند . ولا غرو فان العقول التي وسعت دائرة العلوم باللغات الأوربية حتى صارت هذه اللغات تتعلم لأجل ذلك يوجد مثلها في الأمة العربية وفي غيرها من الأمم . وقد كان السيد الكواكبي غير عارف باللغات الأوربية ولكن ما كتبه في الاستبداد لا يوجد في فلاسفة أوربا كثيرون يكتبون أحسن منه أو مثله بله الذين يعرفون لغات أوربا وليس لهم من علومها سهم يعتد به .

وما لي لا أضرب لهؤلاء المغرورين الأمثال الا بمن ماتوا فهذا رفيق بك العظم فليأتونا بكثير من مثله من متعلمي اللغات الأوربية . وهذا صاحب جريدة المؤيد لا يختلف عاقلان في تفضيل ما يكتبه وهو لا يعرف لغة أجنبية على ما يكتب صاحب جريدة اللواء العارف باللغة الفرنسية

فليخفض المغرورون بوطأة اللغة الاجنبية من غرورهم فان الناس تتفاضل بالعقول لا باللغات فذو العقل الكبير قد يقتبس العلم من الوجود كما اقتبسه جميع الفلاسفة وان للعاقل الشرقي من موارد العلم الغربي كتبا كثيرة ومجلات مترجمة يستفيد منها مالا يستطيع صاحب العقل الصغير ان يستفيده من ينابيعها وأصولها . نعم ان صاحب العقل الكبير اذا اطلع على تلك الأصول يكون أوسع علما منه قبل الاطلاع عليها وان الأمم الشرقية لا تستغني عن طائفة من الأذكياء يفرغون لاقتباس تلك العلوم من لغاتها ونقلها الى قومهم كما أنها لا تستغني عن طائفة يجيدون لغتها وعلومها الدينية والأدبية والتاريخية ولا يجوز تفضيل أفراد احدى الطائفتين على الأخرى لان كلا منها يخدم الأمة بما لا بد لها منه فان جاز التفاضل كان تفضيل من يشتغل لاحياء الأمة بمقوماتها الاصلية من اللغة والدين والعلوم على من يجلب لها علوما من غيرها أظهر لان فقد العلوم الاجنبية عنها نقص وفقد مقوماتها الذاتية موت وفناء

فهل بقي بعد هذا البيان من عذر لبعض الأغرار المفتونين بما لقفوا من العلم الناقص بلغة أجنبية في تنقيص العلماء بدينهم ولغتهم وتاريخهم اذا كانوا لا يرطنون معهم بتلك اللغة

على ان وراء العلم الذي تعد الفتيات وسائل له أمرا آخر هو مناط الافادة بالعلم لمن يحصله وهو مكارم الأخلاق كالصدق والاخلاص والاستقلال والعزيمة والشجاعة والعفة وغير ذلك من الفضائل فاذا أغضينا عن الذين يتعلمون بعض لغات العلم ولا يستفيدون من العلم نفسه الا حالة من قشوره ونظرنا في حال الذين يقال انهم أوتوا نصيبا من العلوم نجد الكثيرين منهم قد شغلتهم شهواتهم وأهواؤهم عن بث ما استفادوا في قومهم وعن الاستزادة منه وعن العمل به على الوجه النافع فالعلم لأمثال هؤلاء كالسيف في يد المجنون يخشى ضره ولا يرجى نفعه للأمة

في حياة المعارف في مصر

دخلت المعارف بمصر في حياة جديدة على عهد سعد باشا زغلول فأسس مدرسة القضاء الشرعي التي وضع مشروعها الاستاذ الامام وستفتح أبوابها قطالبين الذين نجحوا في الامتحان في الشهر الآتي وهذه أعظم خدمة للاسلام في هذا العصر وأعاد التعليم المجاني وجعل من المزايا لمن يتعلمون فن التعليم ما يرغبهم فيه ككونهم يتعلمون مجانا ويتغدون في المدرسة ومنهم من يأخذ مرتبا شهريا وهم أصحاب القسم الثاني من تلاميذ مدرسة المعلمين المقدم ذكرها وأرسل البعوث الى أوربا لتلقي العلوم العالية فى انكلترا وبها في البلاد بعد عودهم فائزين ان شاء الله تعالى وهذه البعوث أكثرها من الذكور وبعضها من الاناث وقد انتقد ارسال بعض البنات الى أوربا من انتقدوا قبيح أعمال الحكومة دلائل على جهلهم للوطن وأهله لعلمهم أن السواد الاعظم لا يزال من الجهلة الذين يعدون تعليم البنات من المنكرات فهم يحتجون على قبح ارسال البنات الى أوربا بكونه مخالفا لرأي الامة ولو أن الحكومة اتبعت رأي الامة من عهد محمد علي الى اليوم لما تعلم أحد من أبنائها ولا ابنائها كلمة في غير تلك الكتاتيب القديمة والازهر

ان جميع عقلاء الامة العارفين بما ينفعها ويضرها متفقون على ان تعليم البنات ركن من أركان الحياة أو شرط لحصولها أو كمالها نعم انهم يختلفون في قدر ما ينبغي أن تتعلمه البنات ورأي كثير من المعتدلين أن التعليم الابتدائي كاف لهن وأنه لا حاجة أو لا ضرورة الى تعليمهن لغة أجنبية. ولكن هذا الرأي خاص بالتعليم العام وهو لا يعارض وجوب تميز من تتعلم لتكون معلمة في المدارس على سائر

المعلمات فان من لا يجاز عليها ما يلقى في المدارس الابتدائية لا تصلح أن تكون معلمة فيها ثم انا ما دمنا عالة على الافرنج في علومنا ومدنيتنا وما دام أمر حكومتنا ومنها ادارة معارفنا في أيديهم أو تحت اشرافهم فلا بد لنا من معلمين ومعلمات من أهل العلم الاوربي الذين يتلقونه من معدنه عن أهله بلغته حتى لا تقوم علينا حجة القوم بأنه ليس فينا أكفاء يتولون التعليم لاسيما تعليم البنات . فارسال بعض البنات اللواتي يرغبن من وأولياؤهن بأن يكن معلمات في المدارس الى أوربا لتلقي العلوم فيها هو الوسيلة الى اغناء نظارة المعارف عن المعلمات الاوربيات لاوسيلة سواها وينبغي أن يخترن من البيوت التي حسنت تربيتها بالدين والأدب

على أن الامة اذا سرت فيها الحياة المعنوية سريانا تاما فانه لا بد أن يوجد فيها من البنات من ينهض بهن استعدادهن الى تلقي العلوم العالية وليس من اعتدال المعتدلين أن يمنع هؤلاء من ذلك بعد العلم بصدق الرغبة وقوة الاستعداد فقد كان في الامة الاسلامية أيام حياتها الاولى كثيرات من المشتغلات بالعلوم الكمالية التي هي من فروض الكفايات التي لا يقوم بها الا بعض الرجال حتى رواية الحديث بالاسانيد والتصدي لتحديث

خطبة الشيخ محمد شاكر وتنديده بلورد كرومر

أرسل الينا الشيخ محمد شاكر شيخ علماء الاسكندرية خطبته التي قرأها في مجمع الاحتفال بتوزيع المكافآت على نجباء الطلبة فاذا هو قد اقتبس في فاتحتها بعض آيات الجهاد واذلال الله الجبابرة للمجاهدين وايراثهم أرضهم وديارهم حتى كأنها خطبة قائد جيش فتح أو يحاول فتح المالك وقد بينا رأينا في الخطبة من خمس جهات — كونها من عالم رسمي وكونها من رجل يعد من بطانة الأمير والمقربين منه وكون التنديد بكلام لورد كرومر تأخر عن وقت الحاجة وكونه جاء بعد تصريح اللورد بأنه لم يرد فيما كتبه عن مبادئ الجامعة الاسلامية الدين الاسلامي نفسه فهذه أربع والخامسة قيمة كلام المخطئة في نفسه وهل يصلح دفعا لشبهات التي تضمنها كلام اللورد على الفقه الاسلامي كما قال أو على الاسلام كما يريد الشيخ شاكر وأمثاله ؟ ولكن هذا الجزء لم يتسع لما كتبناه فاشرنا اليه بهذه الكلمات